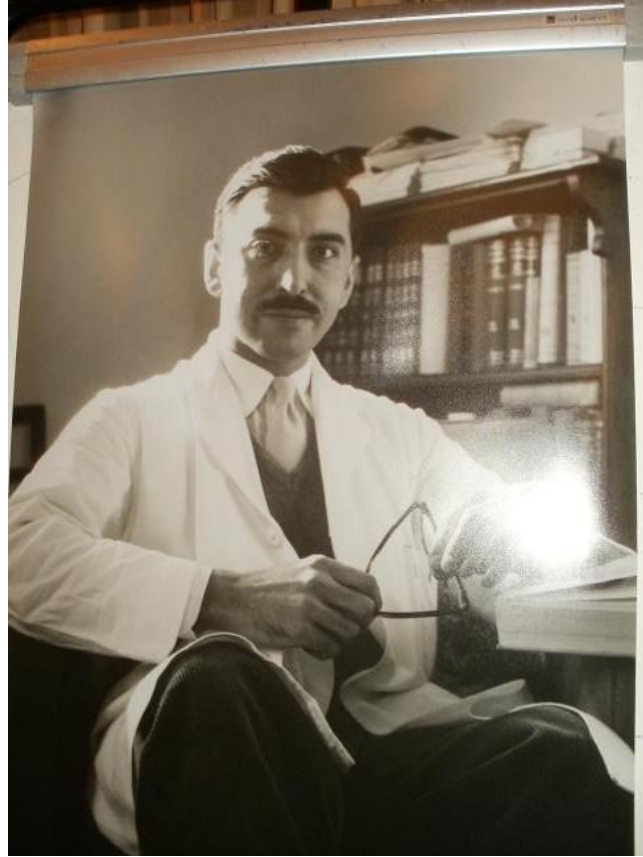


في استذكار صانع طائرات الورق وقطع الشطرنج التشيكلي والممثل والعسكري والطبيب والانسان الذي انقذ رفاقه في قطار الموت

عبد جعفر - لندن

شهد فندق ارمادا في ايلنغ كومون غرب لندن يوم 2-7 حفلا مهيبا لاستذكار الشخصية الاجتماعية المعروفة
الدكتور صبحي اديب بابان الذي وفاته المنية اثر مرض عضال يوم 22-12-2010



وقد زينت القاعة بصور الفقيد ايام شبابه وفي خريف العمر والذي لم تفارقه الابتسامة رغم المرض
والشيخوخة وسنوات الغربة التي طوت اخر صفحاته من دون ان يتكحل ناظره في وطنه بلد الوله
والغرام، ودجلة والفرات.

المتحدثون عن الفقيد كانوا كثيرا ، وهم من اصدقائه ومحبيه وزملاء المهنة وممرضته بالاضافة الى بعض
افراد عائلته الحضور. وقد اضاءات شهادتهم بالاضافة الى الصور وعرض اعماله التشيكيلية في نقرة

السلمان وسجن الحلة بعد انقلاب 6 شباط الاسود 1963 الكثير من جوانب تضحيات هذه الشخصية الفذة الكبيرة المناضلة التي احب الناس واحبوه.

اشارت عريفة الحفل الاعلامية سلوى الجراح الى اننا في استذكار رجل من طراز خاص، واحد من ابناء العراق الذين حملوا اسمه بفخر.



واكدت اخت الفقيه مجمل بابان ان رافد كان متفوقا في دراسته، واكمل دراسة الطب على نفقة وزارة الدفاع عام 1950 ثم حصل على بعثة للدراسة للتخصص في الجراحة في انكلترا وانهاها بتفوق عام 1956.

واكدت ان لرافد هوايات متعددة، اذ كان مولعا بالرسم وشارك جماعة الرواد في رسم الطبيعة في الجادرية، وحب النحت وكان يصنع من الطباشير قطع الشطرنج، ويصنع الطائرات الورقية، وعلمنا كيف نطيرها على السطح. بالاضافة الى حبه الموسيقى الكلاسيكية،

وتعرض رافد للفصل من كلية الطب لمدة عام في 1949 اثر اصداره مع زميله فاروق برتو مذكرة احتجاج على اعتقال الطلاب وحرمانهم من الدراسة اثر مشاركتهم وثبة كانون عام 1948.

وفي يوم 8 شباط المشؤوم تعرض للاعتقال وتم نقله الى سجن رقم واحد السيء الصيت مع الالوف من زملائه وتم تعذيبه تعذيباً شديداً وكسرله رسغ يده اليمنى من اجل اعاقته من ممارسة الجراحة كما اخبره جلادوه.

وبعد فشل حركة 3 تمور 1963 - حركة حسن سريع - انتقم الجلادون من السجناء باقتيادهم الى محطة القطار حيث حشروا في قاطرات حمل تم تزيينها بالقطران متجهة الى السماوة لنقلهم الى نقرة السلطان وسمي هذا القطار فيما بعد بقطار الموت - شهادة الفقيد رافد عن هذه التجربة المريرة مرفقة - وسبق ان نشرها في صحيفة المجرشة عام 1993.



تانيا ابنة الفقيد

وفي 1973 سافر مع زوجته كرسنل لمعالجة ابنته ليلي من مرض السرطان، غير انه فجع بموتها عام 1978 ولكنه استمر بعطائه اذ افتتح قسم جراحة المجاري البولية في مستشفى ويكفيلد واصبح جراحا في يوركشاير حيث حصل على العديد من التكريم ، ثم توالى عليه المصائب بفقدانه وزوجته بمرض السرطان. ثم القيت بعد ذلك عدة كلمات من قبل د. عبد الهادي الخليلى المحلق الثقافى في السفارة العراقية في واشنطن القاها نيابة عنه د. مهدي الحسني، ود. تشيك شاويس، و فاروق مصطفى رسول، وحمدى التكمجي ود. فواز غازي حلمي، الفنان محمود صبرى القاها نيابة عنه الاعلامي فلاح هاشم، وبشرى برتو اقلت كلمة الدكتور فاروق برتو. ومرضه الفقيد مارجرى اشبان، ابنة الفقيد تانيا بابان بالاضافة الى برقيات من المكتب السياسى للحزب الشيوعى العراقى، ود. كاظم حبيب، والفنان محمد سعيد الصكار.

محب الفقراء.... والفنان الانسان

واشارت الكلمات الى دور الفقيد في مساعدة المرضى الفقراء في عيادته في ساحة الطيران في بغداد، حيث كان يقدم لهم العلاج بدون مقابل، وهذا نابع من انسانيته ونظرته التقدمية كشيوعي وطيبته و حبه وانحيازه لفقراء الناس، ولا يبخل في اي جهد او مال للمساعدة، والتزامه كمثقف بقضايا وهموم شعبه وتطلعاته من اجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكان متميزا في عمله، ومارس عمله كأحد انجح الجراحين في بغداد بعد خروجه من الاعتقال رغم مضايقات السلطة. بالاضافة الى دعمه زملائه في المنفى، واشادوا بدوره كنموذج للانسان ولطريق الكرامة، مؤكدين انه لو خلى الوطن من امثال رافد لعم الفساد فيه، وان بفقدانه خسر للعراق ابنا باراحطي بتقدير ابناء وطنه ومن المؤسسات البريطانية حيث كان مثار اعجاب الجميع.



واشار الفنان محمود صبري في كلمته الى ان ارتباط رافد بجماعة الرواد وبالفنانين بصورة عامة اعطاه تفهما لجوانب وابعادا جديدة في الحياة تتجاوز الابعاد الاجتماعية التي يتناولها البحث الطبي المجرى التقليدي و اعني ابعادا تتناول الجوانب الاجتماعية و الابداعية لدى الانسان.



كما قرأت في الحفل المقال الذي كتبه الصحفي حامد حمودي عباس عن دوره في انقاذ السجناء في قطار الموت واخر للفنان يوسف العاني يتناول ذكرياته مع الفقيد ومساهمته مع اختيه مبجل والدكتورة سميرة في الاشتراك في التمثيل في دار المعلمين وكلية الطب.

ثم القيت قصيدة للشاعر منذر الدوري بالنيابة عنه وهي مهاداة للفقيد جاء فيها :

يا من اقترن اسمه بالقطار،

قطار النضال، ومن النضال لم يؤب

ونأيت عن قطار الاحتلال،

والفرقة، والكذب

وقصيدة للدكتور صباح جمال الدين جاء فيها :

مامات رافد العراق، فؤاده لازال خفاقا وشعبي شاهد

يوحي الي، وشعبه متحرر وهتافه، عش خالدا يا رافد



وفي هذا الحفل المهيّب عرض سلايدات وصور واعمال تشكيلية للفقيّد في نقرة السلمان وسجن الحلة، وقدمت أنامل الفنان احسان الامام مقطوعتين على العود منها عاشق الجمال مهداة للفقيّد رافد.

الفقيّد رافد و قطار الموت

وقرأ الاعلامي فلاح هاشم من مذكرات الفقيّد عن 3 حركة تموز 1963، نقتطف منها ما يتعلّق بقطار الموت بعد فشل الحركة .

(ومرت الساعات خلال ذلك اليوم والوجوم يسيطر على السجن . وجاء المساء وجاء معه الأمر بجمع السجناء في الشارع الرئيسي في السجن بصفوف متراسة ... وتم ربط ايدينا بالحبال خلف ظهورنا وراح الضباط الذين كانوا بامرة حازم الأحمر يروحون ويجيئون يكيلون الشتائم والاهانات لنا بينما كان ضباط الصف والجنود الذين كانوا بامرتهم والذين ربطوا ايدينا يهمسون بعبارات التشجيع أثناء عملية الربط والتي تعمّدوا الا تكون شديدة بل سهلة الفتح الأمر الذي أشاع بصيصا من الأمل والثقة في قلوبنا التي كان قد تملكها الكآبة والأسى العميقان. وجئ بسيارات ركوب كبيرة ودفعنا اليها وبعد أن تم ملء هذه الباصات بنا وكنا حوالي الألف بين ضباط من مختلف الرتب وضباط صف وأساتذة جامعة وأطباء وأدباء ومهندسين ومعلمين ومحامين ومن أصحاب المهن المختلفة بدأت السيارات سيرها نحو مصير مجهول وكان الظلام قد أسدل ستائره على بغداد التي كانت شوارعها خاوية .

وأخيرا وصلت السيارات الى محطة قطار الجنوب – البصرة – وأنزلونا الى رصيف المحطة وكنا لا نزال موثوقي الأيدي وشاهدنا قطار حمل لنقل البضائع بمركباته الحديدية واقفا على السكة . وفتحوا ابواب العربات ودفعونا الى داخلها . كانت أرضية العربات مغطاة بالزفت وعلى رصيف المحطة شاهدنا بكل وضوح عبد السلام عارف وطاهر يحيى وعددا من قادة حزب البعث يشاهدون عملية تحميل المركبات بهذه البضاعة البشرية . وسدت الأبواب الحديدية وسمعنا غلقها بالأقفال الثقيلة .. وبدأت رحلة قطار الموت.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وبدأت درجة الحرارة في العربات تنخفض بسرعة وكان معظمنا لا يرتدي أكثر من بجامته . وبدأ البرد القارص ينفذ الى العظام بعد ان فقدت اجسامنا حرارتها . أكثرنا بقي واقفا وجلس آخرون في زوايا العربات منكشمين على أنفسهم يصكون اسنانهم . ومضت الدقائق ثم الساعات والقطار يهدر الى مصير مجهول .. متوقعين أسوأ الاحتمالات لمعرفةنا بضعة نفسية من كان في الحكم آنذاك . وبدأ بعض الأخوان في العربة التي كنت فيها يرغم أغاني شعبية ووطنية واندمجنا جميعنا وتخلل ذلك احاديث تساءلنا خلالها : كيف .. ولم .. وماذا .. وماذا لو .. ومتى ..

ومضى القطار بسيره وأصوات عجلاته تهدر بشكل رتيب وكان حديد العربات يعمل كمضخم للصوت والذي ضاعفه الظلام الدامس . كان المنفذ الوحيد الى الهواء الخارجي هو شق ضيق بين باب المركبة واطاره . لا نرى خلاله الا شبح بعض المحطات التي مر بها العطار دن أن يقف , وزاد البرد قرصا وألما .

ثم انبلج الفجر وأشرقت شمس تموز وبدأت تكوي عربات الحمل الحديدية بأشعتها المحرقة وبدأت الحرارة ترتفع بشكل سريع وتحولت العربات من مجمدات الى أفران .. وبدأ الزفت والزيوت المسكوبة على أرضية العربة تموع وأخذت روائحها تملأ جو العربات وأصبح الهواء ثقيلًا كريها للتنفس . وبدأت أجسامنا تفقد سوائها بالتعرق الشديد وبتنا نتناوب على شق حافة باب العربة لكي نأخذ نصيبا من الهواء الخارجي وأصبح الوقوف على أقدامنا مؤلما لحرارة أرضية العربات ولم يعد بالأماكن الأتكاء على حائط العربة لحرارته الكاوية ولم تكن هناك قطرة ماء نخفف بها تيبس حلقنا وألسنتنا .

لاحظت البعض منا فقد القدرة على الاستمرار بالوقوف وسقطوا على أرضية العربة نصف مغمى عليهم رغم سخونة حديد الأرضية . وبدأ القطار يبطئ سرعته ووقف في محطة لم تكن ندري ما هي . وبدأنا ندق على جدران العربات بقبضاتنا لجلب انتباه من كان في المحطة الى حالتنا المشرفة على الهلاك . وبعد دقائق سمعنا صوتا خافتا من الخارج قرب شق الباب يهيب بنا الصبر قائلا : أخواني اصبروا وتحملوا سيأتي الفرج قريبا .. انتم الآن في الرميثة...

سائق القطار لم يدر ما هو حمل قطاره .. وقد ادرك الآن وسيصل بكم الى السماوة بسرعة.

ورأينا مصدر الصوت من خلال شق الباب وكان شرطيا شريفا . انتقل ال العربة التالية لينقل نفس الرسالة . وبعد دقائق شعرنا وكأنها دهر طويل زادت خلاله معاناتنا بشكل رهيب بدأ القطار بالتحرك وزادت سرعته بشكل ملحوظ الى أن بدأت العربات تهتز وتتأرجح لفرط السرعة التي ساعدت على تبريد حديد العربات نوعا ما لتعرضه الى تيار الهواء وازداد نفوذ الهواء الخارجي خلال شق الباب الى الداخل الأمر الذي مكننا من مقاومة الحرارة . . اضافة الى تأثير الكلمات التي سمعناها من انسان كريم رفعت معنوياتنا وبعثت في أنفسنا الأمل وعلمنا ان شعبنا كأفراد وجماعات لم ينسنا .

وتوقف القطار بعد برهة قصيرة .. أقصر بكثير مما كنا نتوقعه – نتيجة اسراع سائق القطار وعلمنا اننا وصلنا السماوة .. وبدأنا نضرب بقبضاتنا مجددا على أبواب المركبات وأخذنا نصرخ بشدة لجلب الانتباه الى خطورة حالتنا ..

كنا نسمع خلال ذلك الأوامر التي كان يطلقها الضابط الملازم الذي كان القطار بأمرته والتي كانت تدل على عدم ادراكه بما كنا عليه فقد أمر أن تفتح العربات واحدة واحدة ليتسنى له نقل بضاعة كل عربة الى الباصات المعدة خارج المحطة لنقلنا الى الصحراء . ولكنه ما برح أن شاهد بعينه ما حل ببضاعته في العربة الأولى حتى تولاه الرعب وقال : هاي رادوا يخلوها براسي؟

وامر بفتح كافة العربات توا وتساقطت منها الكتل البشرية التي كانت تحملها واندفع من كانت لديه طاقة باقية باتجاه حنفية الماء على رصيف المحطة وكنت من هؤلاء . الا أنني أدركت ان شرب الماء دون تعويض ما فقدته أجسادنا من الملح اثناء تعرّفنا سيؤدي بالعوض الى هبوط نسبة الملح في الدم وقد يسبب ذلك هبوطا في ضغط الدم ثم الأغماء ثم الوفاة . فوقفت في سبيلهم وناشدتهم الأمتناع عن شرب الماء حتى يتوفر لهم الملح وبدأت أصرخ قائلا : ملح .. أرجوكم ملح.

وعلى الفور خرجت النسوة والأطفال من مساكن موظفي السكك والتي كانت مطلة على رصيف المحطة وكل يحمل أكياسا من الملح الخشن وبدأت وبمساعدة آخرين من الأخوان الأطباء من الذين كانوا في العربات الأخرى اعطاء كل شخص – لهمة – من الملح قبل أن يذهب لتناول ما شاء من الماء وقمنا بنقل الماء والملح الى من كان شبه مغمى عليه أو غير قادر على النهوض والخروج من العربات . وقام كل من كان لا يزال قادرا جسميا على سحب هؤلاء الى الرصيف وأعطيناهم الملح والماء وغسلنا رؤوسهم ورؤوسنا بالماء لتخفيف وطأة الحرارة .

تمكنا بذلك من انقاذ الكثيرين من مصير محتوم الا الفقيد الراحل يحيى نادر الذي بقي في حالة اغماء عميقة وكان الواضح أن السبيل الوحيد لانقاذه هو نقل الماء المملح – سيلين – الى أوردته مباشرة وناشدنا الملازم الذي كان ممتعا شاحب اللون باستدعاء سيارة اسعاف لنقله الى مستشفى السماوة حالا وتوسلت اليه أن يمكنني من مرافقته . قال : لقد استدعيت الاسعاف وهي في الطريق .. الا أنني لا أملك صلاحية السماح لك برفقته ورفض رغم الحاحي ..

أخذته سيارة الاسعاف الى المستشفى حيث توفي فيها للأسف . في هذه الاثناء علمت جماهير السماوة بوصول قطار الموت وأدركوا محتوياته فسارعوا الى المحطة بسلال الطعام والفاكهة ولم تتمكن سلطات الأمن من منعهم . وكان تعبيرا جميلا عن تعلق الشعب ببضاعة القطار اولا وتحديدهم للسلطة القائمة ثانيا . بعد ذلك جرت عملية تعبئتنا في باصات أخذت طريقها نحو الصحراء ... نحو نقرة السلطان .

رسالة المكتب السياسي

الأعضاء في عائلة الفقيد الراحل الدكتور رافد صبحي أديب

فجعنا لوفاة العزيز الغالي أبي ليلي بعد الصراع المرير الطويل مع المرض الغادر.

لم يكن فقيدنا الراحل انسانا عاديا . كان شخصية فذة، علمية ووطنية وإنسانية في آن معا . ويعلم كل من احتك به، انه شكل مزيجا فريدا من التخصص العلمي الرفيع (في الجراحة)، وسعة الأفق المعرفي، وفيض التعاطف الإنساني . كما كان في سلوكه وتعامله اليومي مثالا للسمو والنبل، ونموذجا لنكران الذات والوفاء والتفاني، وللتواضع الجم الصادق . يشهد على ذلك كل من عرفه عن كثب في الدراسة والعمل والحياة، وكل من رافقه في رحلة "قطار الموت" الرهيبة صيف 1963 غداة انقلاب شباط الأسود، وكل من عايشه قبيل ذلك في "السجن رقم واحد" في معسكر الرشيد، والكثيرون الكثيرون من فقراء العراق، الذين كان يعالجهم ويجري لهم عمليات جراحية دون أن يتقاضى أجرا .

جسيمة هي الخسارة التي تكبدها برحيل أبي ليلي.

ستبقى ذكراه العبة تنبض في قلوبنا كافة.

مع عميق مواساتنا للعزيزة تانيا والعزير دليز، وللعائلة الكريمة الكبيرة كلها، ولسائر رفاق الفقيد وأصدقائه وتلامذته ومحبيه

المكتب السياسي

للحزب الشيوعي العراقي